

باحث سعودي يصدم المجتمع وينسف الخرافات

مرزوق بن تنباك

«إذا المؤوودة سُئلت» في عصرنا



● العلمانية يراها بن تنباك تحافظ على كرامة الإنسان وعلى شعائره وحقه في الوجود. وجهة نظر جلبت عليه انتقادات عديدة من الأوساط السعودية المتشددة.



● أفكار بن تنباك الجريئة، مثل مقترحته حول المهاجرين إلى السعودية، عادة ما تواجه عقولاً متحجرة ألقت أن تدفن كل جديد في التراب.

صادق الشلال
كاتب سعودي

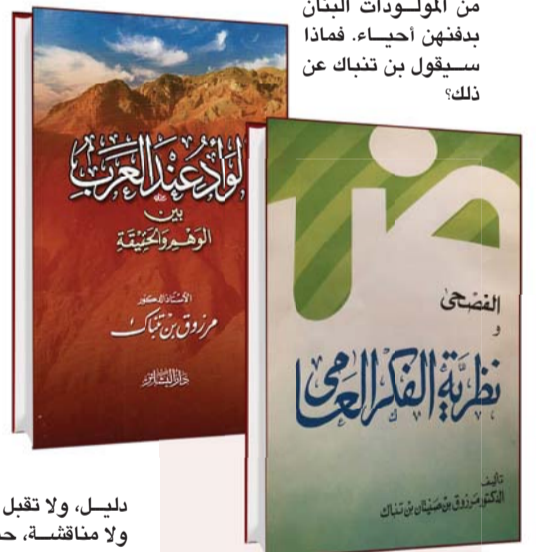
قبل أيام فقط، كان هذا الباحث الإشكالي يثير مجدداً ملفات أريد لها أن تغلق وتطوى مع الزمن. ولكن مرزوق بن تنباك ونادرين من أمثاله، لا يشعرون بالياس وهم يحاولون مرة بعد مرة تفكيك طبقات من الجهل والتخلف والتراجع المعرفي أصابت بلداننا وثقافتنا وطالت جميع نواحي حياتنا. كتب بن تنباك مستغلاً الحديث عن كورونا والخوف منه، ليذكر السعوديين بمشكلة مئات الآلاف من السكان الذين يعيشون في المملكة من دون أن تحسم أمورهم، وخاصة أولئك الذين قدموا من أسيا، أي البورميون، بالإضافة إلى غيرهم من المهاجرين. قال في مقال له إن انصاف الحلول ليست هي الحل، وإن على الدولة السعودية والمجتمع حل تلك المشكلات بإقناع هؤلاء المهاجرين المكتئبين في بيئات مغلقة كي ينتشروا في بقاع عديده، ويندمجوا مع المجتمع كما فعلت بقية الدول المتقدمة في العالم. أفكار بن تنباك، مثل مقترحته حول المهاجرين إلى السعودية والذين لم يتم منحهم الجنسية وغيره من المقترحات الخلاقة، عادة ما تواجه عقولاً متحجرة ألقت أن تدفن كل جديد في التراب، لكن هذه المرة يعود بن تنباك بفكرة تستهدف الواد ذاته العادة البشعة التي قبل لنا إن العرب كانوا يقومون بها في الجاهلية قبل الإسلام. وكانت تعني التخلص

من المولودات البنات بدفنهن أحياء، فماذا سيقول بن تنباك عن ذلك؟

لينتقل من بحث عن إجابة إلى كشف حقيقة واد البنات وإثبات عدم حدوثه بناتاً، مبدئياً استغرابه من قناعة توالدت لدى كثيرين أنها حقيقة مُسلم بها، كونها قناعات تمس كرامة المرأة وتقلل من شأنها، متحدية في ذات الوقت من بناتهن، ولماذا اختاروا الدفن لهن وهن أحياء سواء في فترة الجاهلية أو ما قبلها أو ما بعدها مخافة فقر أو سبب أو عار، ليأتي مصححا لتراث اعتمد، للأسف، في رواية الواد على تفسيرات مرويات خاطئة، ومخيلات حكايا شعبية احتشدت بالمغالطات وأصّلت قصة غير موجودة.

يقول بن تنباك "كنت أبحث عن أسباب الواد عند العرب، ولماذا أودوا بناتهم، ولماذا اختاروا الدفن لهن وهن أحياء، ولماذا لم يقتلوهن بطريقة غير الاعتماد على قصة أقرب ما تكون إلى الواقع والانتحال، مدققاً في جُل الروايات التي وردت في التراث العربي ومفتشاً عن أي أثر يسندنها للجاهلية من شعر ونثر وخبر."

اتضح له أن خرافة الواد ما هي إلا التقاطات لمفسرين، وزاد بالقول "قد كنا نحتفل هذه الرواية وغيرها لو أن الأمر اقتصر على المعنى الأدبي وما يصاحبه من ضروب الخيال، لكن أمر الواد ليس بالدين والاعتقاد وأصل على أنه حق لا يقبل الجدل، فصار الحديث عنه دينياً، كونه رُبط بدلالة القرآن والإشارة إليه، إضافة إلى استناد آليات من الشعر، وروايات من الفخر، وحكايات من الماضي، لتصبح مسلمة لا تحتاج إلى دليل، ولا تقبل فيها حجة، وإن قويت، ولا مناقشة، حتى وإن جاءت بالبراهين والأدلة التي تنقضها فهذا لا يمنع من أن يجتهد من يستطيع الاجتهاد."



خرافات

تناول بن تنباك عبر كتابه "الواد عند العرب بين الوهم والحقيقة" بالتلميح والدقة تفسير الآيات التي أوردت قتل الأولاد، ونصوص الأحاديث والشعر، شعر النقاظ بالذات، ليكون للخيال الشعبي وأثره في قصة الواد والموقف من إنجاب البنات نصيب من الطرح. وجد بن تنباك أن آيات قرآنية عُميت على مفسرين ومُذكرين ووعاظ كانت تكمن احتجاج بأيديهم، حتى جعلوا تفسير كل آية جاءت في القرآن تُذكر قتل الأولاد معني بها واد البنات، مع أن لفظة الولد تشمل الذكر والأنثى، وأوضح أن "سياق القرآن في آيات تحريم قتل الأولاد يدل على أن المراد هو تحريم هذه الأشياء عموماً، لأن مثلها مما يقع، أو مما هو محتمل وقوعه، أو قد وقع فيه الناس زمن التنزيل أو قبله، ولذا جاء النهي عن عدد من المنوعات المحرمت في أصل التشريع، وهي كثيرة" وأضاف أن "عدد المحرمات ومنها قتل الولد تعم بنين وبنات، فلم يخص فيما حرم من القتل بأنه يعني الأنثى خاصة ويستثنى الذكر، متسائلاً: أين التخصص، وأين الاستثناء للذكر من الأولاد، وعلى أي شيء اعتمد المفسرون في تخصيص ما هو عام مطلق في النص كله، ومُذكراً بمكتبات في العصر الحديث ملئت بكتب التفسير، واجتهاد مفسرين محدثين

في بعض الآراء والمعاني والتفكير في ما أحدثته الحياة الصناعية والعلمية الحديثة من أشياء كانت بعيدة عن أذهان المفسرين الأقدمين. ولكن مما يؤسف له في قضية قتل الأولاد التي أشارت إليها نصوص كثيرة من القرآن لم يستطع أحد منهم الخروج عن فهم الأقدمين، وحملوا ذلك كله على الواد وأحاله إليه. لقد أخذ بعض المفسرين رواية الواد اعتماداً على أبيات قالها شاعر يفخر بنفسه وحسبه دون تحقق من صحتها، ثم صنعوا القصص حول الواد وطريقته وأسبابه، وأكثروا من الروايات وقصص الموعظ مقارنين ذلك بحال الإسلام الذي حرم الواد، وأكرم البنات والأبناء في حال الجاهلية التي صنع منها ذلك الصنيع وهو أمر لا يختلف حوله، وليس بالضرورة أن يحرم القرآن شيئاً كان ممارساً من قبل.

المؤوودة التي أشار إليها القرآن

مع أن الحديث النبوي يعد المصدر الثاني من مصادر الشريعة الإسلامية، إلا أن بن تنباك يؤكد على سطوة اختلاف شديد في متونه فيما يتعلق بجزئية الواد، واضطراب غير من معاني الحديث، وجعل الجدل حوله كثيراً، سواء من تصرف في لفظه إما لسوء حفظ أو نسيان، فُسر في عدة ألقاظ متعددة مختلفة، أو على أحاديث رويت بمعناها لا بنصها، وهو حال جائز عند أهل الحديث، وما زاده بعض الرواية في متن الحديث والتي هي نتيجة لما شاع من أقوال الواد بعد أن كثر المفسرون معنى الآية مما يعطي استنتاجاً أن أي حديث عن واد البنات أو شعر أو تفسير للمؤوودة بأنها البنت قد سبق رواية الحديث وتدوينه، وقرر في أذهان الناس المعنى الذي ذهب إليه المفسرون، ويشير

بن تنباك إلى أن الواد لم يرد في الصحاح إلا في حديث واحد فقط شابهته الزيادة والاختلاف من سند إلى آخر. لم يترك بن تنباك الشعر بمعزل عن بحفه لاسيما والشعر ديوان العرب ومصدر تاريخ وأحداث وموفق لها، إلا أنه، والحديث لبن تنباك، لم يرد في شعر العرب آنذاك هجاء في الواد، أو فناء في مُنكر له، وخلو كتب المؤرخين من ذكر هذه العادة، وخلو دواوين الشعراء من الإشارة إليها، بل خلت كل آثار الجاهلية مما يشير من قريب أو من بعيد على حدوثها، أيكون الواد، وهو عمل لا يمكن تجاهله في العرب، ثم لا يكون له ذكر في ديوانهم ولا في تاريخهم ولا في موروثهم وعاداتهم وتقاليدهم في الحياة؛ حتى جاء شاعر ملهم يخترع الأحداث يفخر بابيه وجده، فأصبح مصدر هذه القضية التي ملأت كتب الأدب العربي الإسلامي، وكتب أهل الأخبار والمفسرين والوعاظ والمفكرين، ليجد في ثنايا البحث أن الفرزدق الوحيد دون الشعراء من ذكرت أبياتة ذلك مبدئياً، وهو المهتم بشعر العصر الأموي، استغرابه من سكوت جريز عنها، وهو الذي عُرف بقلبه وتغييره للمعنى تجاه أي بيت يقوله الفرزدق في الفخر، مما أعطاه استنتاجاً أن أبيات الفرزدق في الفخر بابيه وجده منقذ المؤوودات ماهي إلا انتحال "ولا

لم يتوقف بن تنباك دون إزاحة الالتباس الذي حل بدلالة كلمة المؤوودة، وتأكيد شموليتها للذكر والأنثى عند العرب، وبالتالي لم تخالف نصوص القرآن هذه الدلالة، كونه نزل بلغة العرب، ولا نصوص حديث نبوي أو شعري من بعده، وإنما مؤنث الكلمة صرف أذهان المفسرين فاجتهدوا بدلالة المعنى المباشر للمؤوودة وجعلوها البنت التي تدفن حية، فتابع بعضهم بعضاً ونقل بعضهم عن بعض، ولم يتدبروا النصوص التي أشارت إلى قتل الولد، وعلقت ذلك القتل تعليلاً لا يساعد على الاجتهاد الذي وجد عند المفسرين "عندما نظروا إلى آية وإذا المؤوودة سُئلت منفصلة عن معنى القتل، الذي جاء في عدد من الآيات القرآنية"، إلا أن هناك توافقاً بين المؤلف والمفسرين مع جزئية الدفن في التراب، كما أن يمكن اختلافه عنهم حيالها أن النفس المدفونة - المؤوودة هي نتاج سفاح وعلاقة أئمة نتج عنها مولود كان يوارى التراب ويدفن فيه

يمكن أن نجد احتمالاً غير هذا إلا إذا بُد بنا الشك، وأخذنا بمدد قضية الانتحال، وجعلنا الأبيات المنسوبة للفرزدق من انتحال أهل التفسير وصناعتهم، أرادوا أن يفسروا بها الآية الكريمة، ونسبوا إلى الفرزدق شعراً بعد وفاته ووفاته جريز. والحكاوي قبلة الباحثين عن سير البطولة والترفيه، والتي من شأنها أن تحرص الحكاوي على زيادة الخيال الذي لم يكن الواد في سلامة منه بعد أن أدخله الخيال الشعبي ضمن مواضيعه وإدخال الخرافة فيه أيضاً، ونمو القصة مع مرور الزمن وترحلها من شخص إلى آخر أحدث فيها من الزيادة بغرض التشويق الكثير ليؤكد بن تنباك كونها أحد الأسباب التي رسخت الواد في أذهان الناس، غير مستبعد ذلك دور الشعبيين في النشر بين الناس وميلهم إلى تصديق كل ما يقال عن العرب في الجاهلية ومن ثم تاصيله "ولعل روايتهم للسواد وتصويرهم له إحدى الأغراض الشعبية"، معتمدين على وهم وجدوا الفخر دليلاً عليه.

لا تغفلوا الأسواق للصلاة

لم يكن طرح حقيقة الواد عند العرب حصيلته بن تنباك ابن المدينة المنورة والبروفيسور في جامعة الملك سعود في كلية الآداب وحسب، فقد ألف عدداً كبيراً من الأعمال مثل "رسائل إلى الوطن" و"الجوار عند العرب" و"في سبيل لغة القرآن" و"الثقافة لغة العولمة" و"إشكالية الأدب الإسلامي" وغيرها. ونال العديد من الجوائز ومنها جائزة مكتبة التربية العربي لدول الخليج، وتولى العديد من المهام منها رائد اللجنة الاجتماعية ووكيل كلية الآداب ورئيس لجنة الثقافة معرض الرياض الدولي. وقد سبق لبن تنباك أن نشر آراء أثارته الجدل والانتقاد، وكان لها نصيب من التأييد والاعتراض، فهو الذي أبدى تحفظه، ذات يوم، على إقفال الأسواق وقت الصلاة، علاوة على وصفه للعلمانية بأنها تحافظ على كرامة الإنسان وعلى شعائره وحقه في الوجود، والعديد من القضايا التي أضحمت محل نقاش حاد بين السعوديين.

